

جزء معين التاريخ لأهل التاريخ

الدكتور محمد مصطفى زيادة

ثالث ثلاثة أرخوا عهد المماليك

في الوطن العربي " محمد بن إياس "

مجلة العربي

العدد رقم ٣١

١ يونيو ١٩٦١

وزارة الإعلام-الكويت

العربي



ثالث ثلاثة أَرَّخُوا عَهْدَ المماليك في الوطن العربي

جُرَّحُ المُنَاصِرِ بْنِ إِيَّاسَ لأهل بقلتم! الدكتور محمد مصطفى زيادة

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة القاهرة

جدًا ابن إياس

ومولد ابن إياس سنة ١٤٤٨ م ، أى سنة ٨٥٢ هـ . وهو جرکسى الأصل . وجده الأكبر أذمر العمرى الناصرى أبو ذقن الشهير بالخازندار ، وهى وظيفته الأولى فى الدولة المملوكية بالقاهرة . ثم صار أذمر هذا من كبار الأمراء المماليك زمن السلطانين حسن وشعبان ، وتولى فى مدة حكمهما وظيفة أمير سلاح ، وتقلب فى نيابات صفد وطرابلس وحلب ، واختاره السلطان شعبان لنيابة دمشق ، غير أن الموت عاجله وهو فى الطريق إليها سنة ١٤٦٦ م أى ٨٧٠ هـ . ولدينا أيضا معلومات قليلة بصدد جد ابن إياس لأبيه ، واسمه إياس الفخرى ، وهو من مماليك السلطان برقوق ، وبلغ مرتبة الإمرة

■ المؤرخ محمد بن إياس الحنفى ، ثالث المؤرخين الذين تداولوا الزعامة فى ميدان التأليف فى التاريخ المملوكى فى القرن الخامس عشر الميلادى ، أى القرن التاسع الهجرى .

وأول أولئك الثلاثة أحمد المقرئى ، وثانيهم يوسف بن تفرى بردى ، وذلك بحسب ترتيبهم الزمنى .

وكتاب ابن إياس الذى عنوانه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، كذلك ثالث ثلاثة من امهات المراجع التاريخية ، أولها كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقرئى ، وثانيها كتاب « النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة » لابن تفرى بردى .

سريعا ، وتولى وظيفة الدوادار الثانى زمن السلطان فرح بن برقوق .

والد ابن اياس

اما والد ابن اياس واسمه احمد ، فكان على قول ابنه من فرقة اولاد الناس ، اى انه كان من افراد الفرقة المملوكية التى شملت ابناء الامراء من الممالك السابقين المندرجين بالوفاة ، حيث جرت العادة ان يعطى للواحد منهم اقطاع صغير رعايةً لسلفه ، بشرط ان يندمج فى الرديف السلطانى زمن الحرب ، ويكون صالحا للخدمة فى احدى الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم . وذكر ابن اياس عن ابيه احمد هذا انه عاش نحو من اربع وثمانين سنة ، وانه انجب فى حياته الطويلة خمسة وعشرين ولدا ما بين ذكور واثان ، بقى منهم بعد وفاته بنت واحدة وصبيان اثان ، وهما محمد نفسه واخوه يوسف ، وكان يوسف هذا بفرقة الزردكاشية ، اى هندسة المدفعية فى الجيش المملوكى .

معاصرو ابن اياس لم يترجموا له

يتضح من هذه الاشارات العابرة ان المؤرخ محمد ابن اياس نشأ فى وسط مملوكي . غير انه مما يدعو الى العجب ان احدا من معاصريه لم يترجم له بكثير او قليل ، وان مبلغ ما يعتمد عليه الباحث لانشاء ترجمة لهذا المؤرخ الكبير لا يعدو نَسفاً مبشرة فى كتبه التى ألفها ، وعشا يرود الباحث غير ذلك من الكتب المعاصرة والمتأخرة ، وهى مؤلفات الشيخين جلال الدين عبد الرحمن السيوطي - وعبد الباسط بن خليل الحنفى ، وهما من اساندة ابن اياس ، ثم مؤلفات السخاوى والقزى والاعظمى واليمنى والحيمى والمرادى ، وهم اصحاب كتب التراجم والسير للقرون التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر للهجرة .

على ان فقدان هذه الترجمة لابن اياس لا يعجز الباحث أو يُعصيه عن محاولة الكتابة فيه ، بل هو خسارة مشوبة بربح سلبى ، اذ يفدو الاعتماد فى الكتابة مرتكزا الى ما هنالك من اشارات لابن اياس عن نفسه ورجال عصره فيما الف من كتب ، فيستشف الباحث منها موقفه من الحوادث ، ويدرك منها بعض دلائل شخصيته وملامح اخلاقه.

من ((اولاد الناس))

ومن تلك الاشارات ان ابن اياس نشأ كابيّه

احمد فى فرقة اولاد الناس . وتمتع باقطاع صغير مشابه لاقطاع ابيه .

فعاش عيشة راضية ، من غير ان يتطلع الى وظيفة من الوظائف الادارية او الحكومية ، واشتغل بالكتابة والتأليف فى التاريخ ونظم الشعر والزجل والواويل والموشحات فى مناسبات شتى ، وهى واردة كلها فى ثنايا مؤلفاته .

أكان ابن اياس مؤرخ الدولة ؟

على ان منظومات ابن اياس توجب الالتفات ، لان منها ما هو مدح او رثاء لسلطان او أمير ، ومنها ما هو تهنئة بشفاء من مرض أو نجاة من محنة ، ومنها ما هو نقد أو تعقيب على بعض الاعمال الحكومية . فهل نستخلص من هذه القرائن ان ابن اياس تولى وظيفة مؤرخ الدولة فى الحكومة المملوكية زمن السلطان الفورى مثلا ، أو قبله ، برغم انه لم يذكر شيئا من ذلك تعيينا او تلميحاً فى مؤلفاته ، وبرغم ان وظيفة بهذا الاسم لم تعرف فى نظم السلاطين الممالك ؟ أو نقول بان المؤرخ ابن اياس احب ان يكون من رجال الادب المشغوفين بالعيش على هامش الحاشية السلطانية ، المتصلين ببعض رجالها ، وانه اعتزل نظم الشعر اجتذبا للشهرة ، كلما واتته فرصة لمدح أو رثاء ؟ أو نقول انه اراد لنفسه مع السلاطين مركزا مشابها لمركز النديم السلطانى ؟

ومهما يكن من ترجيح او ميل لهذا او ذلك او غيره ، مما يحتمل ان يكون وظيفة لابن اياس فى المحيط المملوكى ، فالواضح من اشعاره وازجاله ومناسباتها الخاصة والعامة انه عاش فردا متتبعا حوادث المجتمع المملوكى الذى تقلب فيه ، وليس ذلك بصفته مؤرخا مَعْنِيًا بتدوين الحوادث والاخبار فحسب ، بل لانه كان رجلا حيا حساسا بما يجرى فى دولة بدت عليها مخايل الاحتضار والزوال . وربما كان من أوضح دليل على هذه الحساسية فيه قصيدته بصدد ضربة المشاهدة التى الفها السلطان قانصوه الفورى اواخر ايامه ، ومريثته التى قالها فى وقعة الاستيلاء العثمانى على مصر ، وكلاهما وارد فى كتابه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » .

كارثة لابن اياس بأخذ اقطاعه منه

وحدث لابن اياس فى منتصف سنة ١٥٠٨م أي ٩١٤هـ ما عكر عليه صفو حياته الهادئة الرتيبة

بالقاهرة جزءا رابعا ، بتحقيق الدكتور محمد مصطفى مدير المتحف الاسلامي بالقاهرة . غير ان نيران الحرب العالمية الثانية أكلت الاجزاء التي نشرتها جمعية المستشرقين الالمان بألمانيا ، فاتجهت الجهود الى اعادة طبع الكتاب كله من نسخة خطية كاملة منقولة من الأصل المطول . وأسهمت في هذا المشروع الكبير وزارة التربية والتعليم بالقاهرة ، ووزارة الثقافة والارشاد القومي ، والجمعية التاريخية في باكستان ، ودار بريل للنشر بهولندا ، والجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة ، وجمعية المستشرقين الالمان .

كتب لابن اياس أخرى

ومن مؤلفات ابن اياس في التاريخ كذلك كتاب « عقود الجمان في وقائع الازمان » وهو مختصر مستقل لتاريخ مصر ، وليست له أية علاقة بكتابه الكبير « بدائع الزهور في وقائع الدهور » أو بالنسخ المختصرة المنقولة منه .

والابن اياس عدا هذا وذلك كتاب « نزهة الأمام في العجائب والحكم » ، وهو تأليف صغير في تاريخ العالم .

كذلك كتاب « مرج الزهور في وقائع الدهور » وهو تأليف عامي في قصص الأنبياء والرسل ، ولعله من أوائل مؤلفات ابن اياس ، بدليل اشارته لبعض محتوياته في الفصل السابع من الجزء الأول من الطبعة البولاقية من كتاب « بدائع الزهور » . ولابن اياس كذلك كتاب « نشق الأزهار في عجائب الاقطار » ، وهو كتاب في الفلك والهيئة ، وتركيب الكون وآثار مصر الفرعونية وملوكها الاقدمين . وفي مقدمته لهذا الكتاب ذكر ابن اياس انه قصد بتأليفه ان يجمع فيه أغرب ما سمع وأعجب ما رأى، ولا سيما عجائب مصر وأعمالها وما صنع الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة في البرابي ، وكان فراغه من هذا الكتاب سنة ١٥١٨م أي ٩٥٥هـ وكثيرا ما استمد منه علماء أوروبا في القرب التاسع عشر ، لشرح بعض نواحي تاريخ مصر القديم في زمنهم .

بدائع الزهور المرجع الأساسي لحوادث زمانه

غير ان معظم شهرة ابن اياس تستند الى كتابه الكبير وهو « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، اذ صار به عمدة المؤرخين في أحوال دولة سلاطين

المطمئنة ، اذ تأزمت أحوال السلطان الفوري لضيق سبل المال اللازم للصرف على مماليكه ، فعمد الى اخراج أولاد الأمراء عن أقطاعاتهم ، كما قرر قطع الارزاق الاحباسية والأوقاف عن أهلها ، وأطلق لماليكه العنان ليهجموا على أصحاب تلك الاقطاعات والأوقاف في بيوتهم ، يأخذوا منهم مناشيرها غصبا وضربا ، اذا احتاج الأمر الى الفصب والضرب والاحراق واليهدة ، ونال ابن اياس من تلك الكارثة ما نال غيره من أبناء طبقته ، فذهب عنه اقطاعه الى أربعة من صفار المالك بمكاتب سلطانية .

ثم يعود اليه اقطاعه

غير انه لم يبق مدة طويلة بغير اقطاع ، اذ وقف للسلطان الفوري أوائل سنة ١٥١٠م أي ٩١٦هـ بقصة يشكو فيها حاله ، وقدما اليه وهو في طريقه للعب الكرة والصوالة (البولو) بميدان القلعة . فاستجاب السلطان الفوري الى شكواه ، ورد عليه اقطاعه ، ومدحه ابن اياس من أجل ذلك بقصيدة طويلة من نظمه المعتاد ، وهي كذلك واردة في كتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور »

كتابه الكبير : بدائع الزهور

غير ان ابن اياس لم يكن من المعجبين حق بالسلطان الفوري ، يشهد بذلك ما كتبه بعد وفاة هذا السلطان في كثير من المناسبات في كتاب « بدائع الزهور في وقائع الدهور » . وهذا الكتاب الشامل لتاريخ مصر منذ أقدم العصور الى أوائل العصر العثماني هو الذي جعل ابن اياس خليقا بمركز الزعامة بين معاصريه من المؤرخين في مصر . وبدأ ابن اياس في تأليف هذا التاريخ الكبير حوالي سنة ١٤٩٣م أي ٨٩٩هـ : وظل عاكفا على تأليفه حتى أواخر أيامه ، فجاء في احد عشر جزءا وكان في عزم ابن اياس أن يضيف اليه ليكتمل اثني عشر جزءا ، لولا وفاته سنة ١٥٢٤م أي ٩٣١هـ . ثم تناول النساخون هذا الكتاب ، فنقلوا منه نسخا بعضها كاملة وافية ، وبعضها مختصرة ناقصة ، والثانية هي أغلب ما بأيدينا منه حتى الآن ، ومن احدى هذه النسخ الناقصة طبع هذا الكتاب في مطبعة بولاق الأميرية في أواخر القرن الماضي ، فجاءت هذه الطبعة بعيدة عن الأصل ، خالية من أهم جزء من أجزائه ، ثم ادركت جمعية المستشرقين الألمان باستنبول هذا النقص ، ف نشرت ثلاثة أجزاء منه ، كما نشرت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

حول السلطان جماعة من الاشراف يحملون على رؤسهم أربعين مصحفاً أكياس من الحرير الأصفر، ومن ورانهم جماعة من مشايخ الطرق الصوفية والاحمدية والرفاعية والقادرية ، وخادم مشهد السيدة نفيسة ، تحف بهم أعلامهم الخاصة . وإلى جانب الخليفة سار الأمير العثماني اللاجئ قاسم بك ، تحت علم من الحرير الاحمر . وعلى مسافة عشرين ذراعاً خلف السلطان قانصوه رفر العلم السلطاني ، ومشى تحته مقدم الممالك والقضاة الأربعة وأمير زردكاشي - أي القائد العام للمدفعية » .

عبارات ملؤها الوطنية الحزينة

هكذا كانت بداية وقعة مرج دابق التي قلب العثمانيون فيها على جيوش السلطان قانصوه الفوري ، وهي الوقعة التي دخلت مصر والشام نتيجة لها تحت الحكم العثماني الفاشم . ولابن اياس في وصف الأيام العثمانية عبارات ملؤها الوطنية الحزينة على ما صارت اليه مصر من التغير، بعد ذهاب الدولة المملوكية ومجيء العثمانيين . على انه لم ير في ذلك التغير شيئاً الا ما جرت به المقادير التي ليس لانسان عليها سلطان ، ونسى ابن اياس أو تناسى ان سلاطين الممالك أنفسهم مسؤولون الى درجة كبيرة عما آلت اليه مصر وأحوالها من ضعف أمام الخطر العثماني الداهم . وحرز في نفس ابن اياس ان مصر صارت بسبب ذلك ولاية تابعة لسلطان العثمانيين في استنبول وهي تبعية امتدت أربعة قرون تقريباً .

وتناول ابن اياس الحكم العثماني في مصر بالنقد والسخرية ، لاهمال رجاله مصالح المصريين أبناء البلاد ، وملأ كتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » بهذه النغمة الجريئة ، ولم يشترك في احتفالات العثمانيين وأعيادهم بالقاهرة ، وذلك برغم ما أحاط السيادة العثمانية من رهبة وخشية . ومن يدري ؟ ربما كان موقفه هذا من الحكم العثماني وجبروته هو السبب في اخفاء ترجمة حياته من كتب التراجم . وعلى هذا يكون ابن اياس طليعة مبكرة من طلائع الوطنية في الشرق العربي ، وتكون الصفحات الختامية من كتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » أول صيحة طيبة من صيحات الاحتجاج ضد مظالم الحكم العثماني الشهيرة في التاريخ .

محمد مصطفى زيادة

الممالك وأخبارها في مرحلتها الأخيرة على مسرح التاريخ ، والمرجع الرئيسي لحوادث استيلاء العثمانيين على مصر بعد استيلائهم على الشام ، وكل ذلك في أسلوب واضح متزن ، ولذا ميزه المستشرق مارجوليوت عن جمهرة المؤرخين في مصر وغيرها من البلاد العربية بقوله : « ان أسلوبه في الكتابة والتأليف ونمطه في التفكير ينم كل منهما عن فردية واستقلال في الرأي ، قل أن يدانيه فيهما معظم المؤرخين » .

استقلال ابن اياس في الرأي

والواقع ان ابن اياس كان على جانب من القدرة في النقد فلم يقنع بسرد الحوادث والوقائع على وتيرة أغلب السالفين من المؤرخين ، بل وقف بين الحادثة والأخرى يشرح ويفلسف ، مع شيء من القسوة في الحكم والجرأة في التقدير ، وربما شجعه على ذلك اتصاله ببعض أعيان البلاط السلطاني في عهود مختلفة ، وهذا فضلاً عن صلته بأخيه يوسف الزردكاشي الذي أمدّه بما جرى بالقلعة ودوائر الجيش المملوكي من أخبار، ولا سيما أخبار المدفعية ، التي عُنيَ ابن اياس بتدوينها والاشارة الى اهمالها على عهد السلطان الفوري .

وصفه لملاقاة السلطان الفوري جند الأتراك عند فتح مصر والشام

وأودع ابن اياس صفاته ومؤهلاته كلها في كتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، ولا سيما في الصفحات الخاصة بالاستيلاء العثماني على مصر والشام ، وهي الصفحات التي يكاد يتفرد بحفائقتها هذا الكتاب الكبير . وإلى القارئ سطور من هذه الصفحات بعد شيء من التبسيط والتهذيب ، وهي تصف السلطان قانصوه الفوري في ساعاته الأخيرة يوم ملاقاته السلطان سليم العثماني عند دابق قرب حلب ، وخلصتها :

« وعند مطلع الفجر رؤيت العساكر العثمانية على مسافة من دابق ، وفي مقدمتها عدد من المكاحل والمدافع محمولة على عجلات تجرها الجند ، فلم يؤخذ السلطان الفوري على غرة ، بل صلى صلاة الصبح ، وخرج للقتال متمطياً فرساً ، وعلى رأسه عمامة خفيفة ، وعلى كتفه عباءة من حرير أبيض وبيده طبر (سلاح كالبلطة) . وركب الخليفة العباسي عن يمينه في ملابس مشابهة ، من عمامة وعباءة وطبر ، وعلى رأسه علم الخلافة . ومشى